صوت النائب وصوت الناخب

بقلم حضرة صاحب المعالى الأستاذ ابراهيم دسوقى أباظه

وزير الشؤون الاجتماعية

" ألقى معاليه هـذه المحاضرة من محطة الاذاعة اللاسلكية قبيل تقلده منصب الوزارة ، وقد استأذناه فى نشرها فأذن "

المحرر

دعتنى وزارة الشؤون الاجتماعية للكلام عن " صوت الناخب " وعينت هذا العنوان على ما فيه من غموض ، فحاولت محاولة تلميذ يؤدى امتحانه أن أكتب فى الموضوع بغير رجوع إلى من اختـار العنوان ووضع الامتحان ، ولكنى آثرت أن أحدثكم عن " صوت النـائب وصوت الناخب " بما افترضت أنه يدخل عن قرب أو بعـد فى موضوع الامتحان ، وأرجو أن تسمحوا لى بأن أبدأ بصوت النائب فأتكلم عنه من جهة تقدير مكانته وتقويمه فى ميزان الاحترام العام ، ثم عن صوته عند الدعاية الانتخابية ، فقد جرى على ألسنة الناس مجرى القول المـأثور "صوت الشعب من صوت الله" ولمـا كان النائب يمثل الشعب فلعله يظن أن من حقه أن يطمع فى الادعاء بأن فى نبرات صوته شيئا من هذا المعنى ، أو يتواضع قليلا فيزعم أن صوته يحاكى على الأقل بعض أصـوات الملائكة . أما أنا فأؤكد لكم أن صـوته فى بعض الأحيان يكون أقرب إلى صوت الشيطان عندما يكون ممن أعطاهم الله هبة الخطابة والتأثير الشخصى وقوة الإرادة ، وحرمهم من طهارة الضمير وحب الخير والإخلاص للوطن ...

ومن قديم الزمان لم يكن " بروتس " على حق حينما حمل على يوليوس قيصر ذلك العاهل العظيم الذى خاض المعارك ظافرا ، وأخضع للرومان أقطارا شاسعة وعاد يحمل إلى روما أكاليل الغار ، ثم رفض التاج الذى عرض عليه غيرمرة ، ومع هذا فإن بروتس صديقه الحميم اتهمه بالجشع والأنانية ، وسمع فيه أقوال الوشاة الحاسدين من أعدائه ، ثم تآمر عليه معهم وهجموا عليه ذات يوم يطعنونه بسيوفهم وهو يناضل عن نفسه مستبسلا حتى إذا رأى بروتس ينقض عليه شاهرا سيفه ليخضبه من دمائه أغمض عينيه وألقى حسامه وغطى بردائه رأسه لكيلا يرى ذلك المنظر الوحشى المؤلم : منظر صديقه يطعنه ، واستسلم للموت ونطق بكلمته المشهورة "حتى أنت يا بروتس!" ثم سقط قتيلا ، بعد أن رأى خيانة بروتس الذى كان يعتبره خير الأصدقاء ، ومثـال الحب والإخلاص والوفاء ، قضى وهو يقول : " لاخير إذن فى الحياة " .

ولم يكن "روبسبير" نائب باريس ورئيس اليعقوبيين على حق عندما أعان الحرب على رجال الجيروند وكان حزبهم أول من نادى فى فرنسا بالحرية ، وقام بالنهضة الوطنية ، وشيد دعائم الديموقراطية ، وما زال بهم حتى أهدر دماءهم فقتل وسجن أكثر زعمائهم وشتت شمل صفوتهم وأخيارهم .

ولم يكن صوت " مارا " حبيب الشعب صوتا ملائكيا عندما كان يلغ فى دماء أبناء وطنه الذين يخالفونه فى الرأى ويطالب حزبه بالإمعان فى إهراق الدماء "دماء الجيروند والملكيين " وكان يصدر جريدة حبيب الشعب " L'ami au peuple " ومنها الى الآن أعداد محفوظة فى مكتبة باريس ، كانت من أول حرف إلى آخر حرف تحض على القتل والفتك والسفك ، وكانت تجد من الشعب آذانا صاغية فكانت المقاصل لا تكفى لإعدام ألوف المواطنين إطفاء لظمأ حكام فرنسا اليعقوبيين الى الدماء ، وقد سمى الفرنسيون هذا الوقت عصر الرعب " L'ere de la terreur " أقاموا لهذا النائب " مارا " تمثالا فى البرلمان ولكن لم يمض وقت طويل على الخلاص من عصر الرعب حتى حطم الشعب هذا التمثال ، تمثال المجرم الدموى الأثيم ، وجاء عصر الجيروند بعد ذلك فأخرجوا من السجون واستولوا على الحكم بعد حين .

ضربت المثل بالقديم لأبرهن على أن صوت النائب قد لا يكون دائما صوت الحق والعدل والحرية .

ولنبدأ الآن بالكلام عن النائب عندما يرتفع صوته بالدعاية الانتخابية لنفسه ، فمن المرشحين من يصون صوته عن العبث بأحلام الشعب فلا يداهن ولا يخاتل ولا يمين ، ومنهم من لا يكترث كثيرا لشرف الدعوة فيختلف صوته باختلاف البيئة التى ينتمى إليها والبيئة التى يدعو لنفسه فيها فتراه يتنكر أحيانا لماضيه ، ويتكلم من غير عقيدة لا يهتم إلا بأن يتملق الجمهور ويرضيه ، ثم هو فوق ذلك يحمل على خصمه الحملة الشعواء ويرميه بما ينفر منه قلوب الدهماء . ومما أذكره دعاية طريفة قام بها رجل من أعيان الريف كان معروفا بالمكر وسعة الحيلة وكان منافسه كبيرا من رجالات مصر وعالما من أقطاب الأدب والسياسة وكان هذا العالم السياسى يتغنى بالديموقراطية ويمجدها وينادى بها حتى اشتهر عنه ذلك . والشرف والديموقراطية كما تعلمون هى حكم الشعب بواسطة الشعب لخير الشعب ، لكن خصمه انتهز الفرصة وأخذ يطوف البلاد ويقابل الناخبين ويوسوس فى عقولهم بأن الديموقراطية إنما هى المساواة وأن ذلك السياسى المصرى يعترف بأنه ديموقراطى وغرضه الذى يرمى إليه من هذا هو مساواة النساء بالرجال فى حقوقهن فكما أن الرجل من حقه أن يتزوج بأربعة من النساء فالمرأة من حقها أن تتزوج بأربعة من الرجال ، ويطلب إليهم أن يسألوه ليسمعوا من فمه ذلك الاعتراف ، وصدق الناخبون الغرية ، وكان من يريد أن يستوثق منها يمر بالسياسى العظيم

فيسأله " هل أنت ديموقراطي ؟" فيقول له : " نعم " فينفض عنه قائلا : "طيب ، سلام عليكم " بغير أن يدخل معه فى التفاصيل ، ثم ينشر ذلك فى الملأ ، وهكذا فشل ذلك النابغة فى انتخابات الجمعية التشريعية .

وأعرف مرشحا شديد الخطر ، من أسرة فقيرة لا يملك من حطام الدنيا شيئا ، ولكنه يستفيد من هذا الفقر ويستغله أكمل استغلال فهو يندس بين الفلاحين فى ذلة وانكسار ، رث الثياب تبدو عليه آثار الفاقة ويقول لهم ، " انى مثلكم " فقير لا أملك شيئا قد كنت عاملا صغيرا أتقاضى قرشين فى اليوم ، ثم انتسبت إلى كلية الحقوق فأصبحت محاميا ولكننى شعرت بألم الجوع والحرمان وما زلت رقيق الحال لا أعرف الا الشقاء والبؤس فأنا منكم أشعر بآلامكم وما تقاسونه من استعباد وذل ، وأمى ما زالت تلبس الجلبية الزرقاء وتحمل على رأسها الجرة فنحن من أسرة واحدة . ثم يبيت فى بيوت الفلاحين متنقلا من دار إلى دار لا يجد فى ذلك مضضا ولا غضاضة . ويقضى لياليه بينهم يناجيهم بما يملك به عواطفهم ، ويستولى به على نفوسهم ، ويبالغ فى وصف ارستقراطية خصمه وعظمته وتعاليه ، فيقول للناخبين انى لكم أن تصلوا اليه ودونه الف حجاب ، وكيف يشعر بما أنتم فيه من ضيق وضنك ؟ أنى له أن يشعر بما تشعرون به وهو يتقلب فى قصره العظيم على أرائك من الترف والنعيم ؟ وإذا صادف هذا المرشح امرأة وقف بين يديها يخطب ولقبها بالسيدة النبيلة ، ثم يحرضها ويذويها على منافسه ، ويتركها مشدوهة بعد أن يكرر على سمعها قوله " قولى لزوجك لا تكفر قولى لزوجك لا تكفر " ثم ينطلق من قرية إلى قرية ينفث فيها سموم دعاياته فيهيب بالغوغاء مهيجا عواطفهم ، مثيرا فيهم عاطفة البغض والكراهية والعداء . وقد فهمت من مراقبة مثل هذا المرشح كيف تنبت الشيوعية وتتغلغل فى نفوس الجماهير الساذجة التى سرعان ما تصدق المخادعين والدجالين المضللين فيفلت زمامها من أيدى الحكماء والمثقفين المفكرين .

أما صوت النائب فى مجلس النواب فيجب ان يضعه حيث يكون الحق ومصلحة الوطن ، فإن النائب قد أقسم يمينا أن يؤدى واجبه بالذمة والصدق ، ولكنه يرى بجانب الذمة والصدق حزبا وحكومة يجب أن يدخلا فى حسابه . أما من جهة الوطن فان الوطن غفور رحيم . وتعدد الأحزاب من لوازم الحياة النيابية لسوء الحظ ، وله فوائد ومضار ، فوجود الأحزاب كارثة ، وزوالها نكبة . ولا يتسع الوقت لأتكلم عن الأخطار التى تترتب على المنافسات بين الأحزاب وأغراضها وغاياتها ، ولكننى أسوق لكم واقعة لا تخلو من الطرافة :

كان ذلك فى سنة ١٩٣٤ وكانت جلسة مجلس النواب منعقدة للنظر فى موضوع التعليم الإلزامى ، ولى فيه آراء خاصة ترمى الى تيسير التعليم ونشره وتعميمه مع الاستغناء عن الزخرف والأناقة والتماس الكماليات . فأخذت أتكلم عن هذا طويلا وأطلب أن تتخذ تركيا قدوة حسنة ، فإنها قضت على الأمية أو كادت فى زمن وجيز . وشعرت بأن كلامى أحرز قبولا

حسنا فقد صفقوا له طويلا حتى خيل الى أن الكثرة أصبحت تحبذ رأيي وبادرت بوضع اقتراح وقع عليه معي ثلاثون نائبا وقدمت الاقتراح وصممت الحكومة على رأيها. ثم طلبت أخذ الآراء بجعلوا ينادون الأسماء وكنت أسمع فى شيء من الدهشة توالى كلمة "موافق . موافق" تتردد من جوانب المجلس لمناصرة الحكومة، فوقعت عندئذ فى شيء من الضيق وسرت فى الممر نحو أحد أبواب قاعة المجلس ثم خطر لى أن أقف هنيهة بجانب وقفتي خلف مقعد أحد النواب الذين وقعوا معي على الاقتراح، فاذا به هو أيضا يقول موافق. أخذ مني الغيظ مأخذه ووضعت يدى على كتفيه أهزهما بعنف وقلت له إنك وقعت معي على الاقتراح، لقد وقعت معي على الاقتراح. فاضطرب لهذه المفاجأة وأجاب "أحسبك خرجت. أحسبك خرجت" وغلبني الضحك وروّح جوابه عن نفسي، وجلست، ورفض الاقتراح. ولست أقصد أن النواب يخالفون ضمائرهم ولكن بينهم من يغالى فى الحيطة أو يبالغ بغير ضرورة فى الرضوخ للأنظمة الحزبية حتى فى غير المسائل السياسية .

والآن فلننتقل إلى صوت الناخب . فما الناخب إلا وكيله ورسوله. وكيله الذى وضع فيه ثقته فاختاره لأشرف مهمة، ورسوله إلى مجلس النواب ليشترك فى الهيمنة على مصالح البلاد.

فهذا الصوت، صوت الناخب ، يجب أن يحرص عليه صاحبه ويضن به ولا يمنحه إلا لمن يعتقد فيه الخير لبلاده ، ومع هذا فكثيرا ما رأينا أن الناخبين يلتمسون بأصواتهم :

(أولا) المنفعة الخاصة .

(ثانيا) نكاية النائب لأن له بغير أسرته صلة .

(ثالثا) الظهور بمظهر الوطني المخلص فى بلده إذا اعتقد أن الكثرة فى قريته خاطئة فيجارى القرية .

وقد شاهدت أمثلة كثيرة من هذه الثلاث ، وأذكر أنى أنقذت سنة الثورة سنة ١٩١٩ موظفا صغيرا من موت محقق ، وأنقذت حياته بتعريض حياتى وحريتى للخطر ، ثم أحيل إلى المعاش وساعدته فى تقرير المكافأة له ، واستقلت أنا أيضا ومضى على ذلك زمن طويل، وفى يوم من الأيام عرفت مقره فى إحدى القرى ووجدته جادا فى مقاومة انتخابى فشعرت بصدمة قوية، ولكنى ظننت أنه يعمل باعتقاد، فأخذت أتلمس له المعاذير ، غير أنه اعترف بأن منفعة مادية ضئيلة هى التى جذبته إلى الطرف الآخر، وأخذ يؤكد لى مع هذا أنه لم ينس ما لى عليه من يد .

وكثيرا ما وجدت أسرات تتحول عنى نكاية فى العمدة أو فى أسرة تنافسها فى البلد عرفت بالميل إلى .

ومن غريب ما صادفته فى الانتخابات أنى علمت أن ناخبا يعمل على مناوأتى بهمة ونشاط متنقلا من بلد إلى بلد، فسألت عنه أحد أصحابه فقال إنه أخبرنى أنه يريد أن يلفت

نظرى إليه فقلت إنها لطريقة رقيقة حتا أن تلفت إليك شخصا بأن تقذفه بحجر، فقابله ثم عاد إلى يقول بأن هذا الناخب يعترف بأنها طريقة شاذة ولكنها ناجعة، فهو يقول عنى بأننى تعودت الأرهار تلقى على بكثرة حتى أصبحت لا أعبأ بها، أما الحجر فقد نجح فعلا فى أنه لفت إليه النظر.

وفى إحدى القرى تلقانا شاب مثقف بقصيدة من نظمه فصال وجال، وبالغ فى المدح والترحيب ماشاء الخيال، ثم علمت أنه قابل بعد ذلك منافس قريبى الذى كنت أدعو له بقصيدة أخرى عصماء لا تقل عن قصيدتنا فصاحة و بلاغة. وعدنا إلى بلدة كبيرة ثانية فانبرى الشاعر نفسه للخطابة والقرية كلها تسمعه فى عجب ودهشة، وأخذ يبرر الرياء والنفاق، ويصف بهما نفسه فى صراحة صارخة و بلغ به الأمر أن قال " لو كانت الانتخابات وجدت فى زمن النبوة لسمح بها الدين"

وهنا سمعت دمدمة من رجال القرية، ورأيتهم فى هياج شديد، فوقفت أدافع عن الشاب فقلت إنه على الأقل صريح فى نفاقه، و إن كان الدين لا يمكن أن يأمر بالنفاق، ثم جعلت أعتذر عنه لأخفف من سخط القرية فقلت: وإنه لشاعر والشعراء فى كل واد يهيمون، وهم يقولون ما لا يفعلون، ثم زعمت أنه أخطأ التعبير فإن الذى دفعه إلى ذلك ليس هو الرياء بل فرط الحياء فهو يكرم ضيوفه بأعز ما عنده — وأعز شىء لديه شعره — وهدأت ثائرة القوم فاطمأنوا وانصرف الشاعر فرحا لخلاصه من ورطته وصدقت القرية معنا فى الانتخاب، واصبح المرشح عضوا بمجلس النواب .

وهكذا ترون أيها السادة أننا نقاسى الويل ونكابد أصناف العناء مع الناخبين الذين يرون فى الانتخابات أفضل مناسبة للتدلل، وقد تعودوا أن يسمعوا من النواب أعذب الاقوال وأجمل الوعود، وقد يكون المضللون والمهرجون من المرشحين هم أصحاب الحظ الأوفر فى الحصول على الثقة بسبب تأخر البلاد فى ثقافتها، وتأخرها فى الحصول على حريتها، مما جعلها بعيدة عن المرانة فى اختيار الرجال وحسن تقديرها لهم، والنضوج السياسى لا يمكن أن يأتى طفرة واحدة بل هو يأتى مع طول الزمان وطول النضال .

ولكن على أى حال يجب أن نذكر أننا فى بدء حياتنا النيابية، وقد مضى على الممالك الدستورية أجيال وأجيال تمارس فيها هذه الحياة فاكتسبت مرانة وخبره .

وسترى الأجيال المقبلة إن شاء الله ناخبين ونوابا جديرين بمجد مصر التاريخى العظيم، وترى البلاد برلمانا جديرا يتفوق على أمثاله فى العالم نظاما ونشاطا وعملا مجديا منتجا نافعا .

ولا يفوتنى أن أذكر أن الحياة النيابية على مافيها من عيوب هى خير أنواع الحكم وأن البرلمان المصرى على حداثة عهد البلاد به أسدى إليها أيادى جليلة وقدم لها خدمات كبيرة إذا لم يعترف بها بعض المعاصرين فإن التاريخ سيذكرها له بالتمجيد والتحبيذ والإجلال العظيم ٤

ابراهيم دسوقى أباظه